التحديات التي تواجه الدراسات النسوية في بحوث الاعلام والاتصال

ومثلما احتكرت دولة الاستقلال قضية المرأة وصوتها فانها صادرت امكانية تحولها الى اداة تغيير حقيقية للبنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . اذ على الرغم من ان الاتجاه السائد قبل الدولة الوطنية ينم عن تناغم بين الدولة والقوى التقليدية في المجتمع" ومن ثم فان المرأة لم تكن خاضعة لذكور الاسرة فقط بل الى الدولة/ الذكر/الاب غير ان هذا لم يكن ليعني تغيرا حقيقيا في اوضاع المرأة بعد بروز دولة الاستقلال ومن ثم فان الاصلاحات التي عالجت حقوق المرأة في التعليم والصحة والعمل لم تكن تستهدف تحرير المراة بقدر ماكانت تستهدف تعزيز" الدولة الوطنية" وترسيخ حضورها الابوي . فلم تكن الدولة العراقية على مراحلها المختلفة مستعدة لمناقشة حقيقة ان ثمة فرق واسع بين الادوات والاهداف فالتعليم على سبيل المثال لايعني شيئا اذا كان لاينتج فكرا نقديا او يكون دافعا لاعادة النظر بالبنى االثقافية السائدة في المجتمع ويسهم في بناء ثقافة التكافؤ والمساواة والشراكة .

في ورقة بحثية قدمت الى الجامعة الامريكية في الشارقة قبل عشر سنوات وكانت حول الموضوع ذاته تطرقت الى ظهور مصطلح الجندر بالعراق واقتران ظهور بصحيفة تابلويد اول مرة عام 2000 من اتحاد نساء العراق وكان ذلك بمثابة عرض للحصول على تمويل لم يطلق غير بربيع 2002 وبدات تصدر بشكل شبه منتظم حتى الاجتياح الامريكي للعراق اذ ظهر وقتها اخر عدد منها وكان يحمل رقم 15 .لم تكن الصحيفة تختلف عن كان اتحاد نساء العراق يشرف على إنتاج الجريدة ويوزعها بشكل يكاد ان يكون محدودا .كتب في الجريدة صحفيين وصحفيات عراقيات عالجوا أوضاع المرأة العراقية . باستثناء العنوان وزاوية أرشيفية تعرض معنى الجندر ، لم تكن الجريدة لتختلف كثيرا في موضوعاتها وتوجهاتها عن مجلة المراة الصادرة عن اتحاد نساء العراق والتي تعثرت بسبب الحصار ." كان العاملون والعاملات في الجريدة يطلقون على تلك الزاوية فيما بينهم" سبب التمويل" لم تكن الجريدة ذات منظور جدلي او نقدي وكانت الموضوعات التي تنتقد اوضاع المراة تكتفي باعادة السبب الى المجتمع .

بعد 2003 صار مصطلح الجندر يتردد في اخبار وانشطة منظمات المجتمع المدني جنبا الى جنب مفردات مثل الديمقراطية وحقوق الانسان والسلم الاهلي والشفافية وصار من الشائع جدا ان يختصر نشاط بعض المنظمات المحلية "التي انتشرت على عجل وبسرعة في العراق مثل انتشار وسائل الاعلام والاحزاب " على انشطة تقول انها تروج لمفهوم الجندر تستهدف فيه فئات معينة من المجتمع و صار وضع المصطلح في أي مشروع يكاد ان يكون وصفة السحرية للحصول على دعم من المنظمات الدولية خاصة في السنوات الاربع الاولى التي تلت الاجتياح الامريكي .

 يكاد لايختلف الامر كثيرا في الجامعة على صعيد الاهتمام بالمفهوم او التفكير بامكانية استعماله كاداة تحليل اذ ان تتبع سريع لعنوانات رسائل واطاريح الماجستير والدكتوراه في جامعتي بغداد والمستنصرية في مجال العلوم الاجتماعية قبل 2003 يكشف عن غياب المفهوم مع استثناءات قليلة في مجالات علم النفس وهي قليلة ركزت على المفهوم وتمظهراته عند الاطفال الذكور والاناث فضلا عن ورود المفهوم في سياق مفهوم الصورة النمطية الذي دخل اول مرة في تسعينيات القرن المنصرم في الجامعة عبر قسم الاعلام في جامعة بغداد

 لكنه لم يدخل بالقوة ذاتها التي دخل فيها منظمات المجتمع المدني لاسيما مع حملات التشويه التي طالت من يستعمل المفهوم ومنظمات المجتمع المدني التي لطالما وجهت اليها اتهامات بالعمالة الاجنبية وتنفيذ اجندات غربية لتخريب النسيج الاجتماعي للمجتمع العراقي وتهديد كيان الاسرة العراقية ..

يمكن اجمال التحديات التي تواجه الدراسات النسوية في بحوث الاعلام في نقطتين رئيسيتين

تتعلق الاولى بنظرة المجتمع الاكاديمي للبحوث الاجتماعية عموما وبالدراسات والبحوث التي تعالج قضايا النساء خاصة ففي هذا الجانب ومن خلال التحاقي تدريسية في كلية الاعلام عام 2006 لم اشهد ابتعاث اختصاص الدراسات الاتصالية خارج العراق ضمن البعثات التي انطلقت بعد 2003 اي اننا خلال عقدين من الزمان لم نشهد التحاق باحث تحصل على علمه خارج العراق .فاذا كان لدينا تدريسيون تخرجوا من جامعات اجنبية بريطانية وامريكية فقد كانوا في من خريجي سبعينيات وثمانينيات القرن المنصرم واعدادهم قليلة مقارنة باقرانهم في العلوم التطبيقية ومعظمهم احيلوا الى التقاعد والكثير منهم توفاه الله . منذ عام 2003 لم يكن لدينا غير بضعة تدريسين لايتعدى عددهم اصابع اليد الواحدة من خريجي الجامعات الاجنبية وصلوا سن التقاعد وتوفاهم الله .

ان نظرة الدولة العراقية للدراسات الانسانية محكومة بنظرة فوقية تنظر الى هذا النوع من العلوم نظرة متدنية حتى ان من يدير العملية التعليمية والاكاديمية في الجامعات عادة مايكون من اختصاصات هندسية او طبية ينظرون الى البحث الاجتماعي نظرة دونية وبعضهم لم يتورع في الاعلان عن ان الاختصاصات الانسانية تشكل عبئا لايعرفون كيف يتعاملون معه !

لقد خضع قبول الموضوعات ورفضها الى عدم فهم المنطقة البحثية هذه وعدم الاكتراث بها وهو ما اسهم في قبولها في احيان ورفضها في اخرى ! اي ان الجهل بالامر اسهم بقبول موضوعات لم يكن ليسمح بها في حال فهمها .اما عدم قبولها لفهمها يعود لنظرة ذكورية تجد في تناول مثل هذه الموضوعات تهديدا شخصيا بالدرجة الاولى لا علاقة للجانب الالكاديمي برفضها .

ومن تجربتي الشخصية حين اقدمت على تسجيل موضوع بحثي للدكتوراه في اكتوبر 2002لم تكن دراسات الصورة وقضايا النساء قد عولجت في بحوث الاعلام في كلية الاعلام/جامعة بغداد اطلاقا بل ان برنامج الدراسات العليا الذي بدا عام 1988 لم يسجل غير بحث ماجستير واحد عام 2001 وبعد 65 بحث في موضوعات متنوعة وكان عن  **البرامج الإذاعية والتلفزيونية الموجهة للمرأة في إذاعة وتلفزيون العراق دراسة تحليلية ميدانية للمدة من 1999 – 2000**

وقد اسهم في قبول الموضوع وجود مشرف مطلع خريج المانيا وظرف سياسي مضطرب مرر هذا الموضوع ابانه /2002 ! وقد مر اقرار الموضوع في عدة جولات من الرفض حتى قبوله في نهاية المطاف !"لقد دخل العامل الشخصي في منطقة الرفض والقبول قبل ان يكون الاكاديمي هو الفيصل"

منذ عام 1988 تى يومنا هذا من عام 2023 انتج 861 بحث دكتوراه وماجستير ودبلوم وكان مجموع البحوث التي تناولت المراة في الاتصال والاعلام 31 بحثا انتجت ابتداء من 2006 حيث تصاعد الانتاج رويدا رويدا ومع ارتفاع عدد المقبولين والمقبولات في برامج الدراسات العليا ازدادت النسبة لاسيما بعد عام 2016 .وارتفاع الضغوط الدولية لادماج النوع الاجتماعي في مفاصل المؤسسات والدولة العراقية مما اسهم في تمرير موضوعات من هذا النوع / ملاحظة "لم يحدث اطلاقا وان حضرت اي جهة معنية او طلبت بحوثا تخص المراة او ابدت استعدادا لتبني بحوث ودعمها"

التحدي الاخر الذي حكم الدراسات النسوية في الكلية هو المنهجية وهو امر لايقتصر على بحوث المراة حسب بل يحكم مجمل النتاج في الكلية

ما زالت البحوث الكمية والمقايسس والارقام والنسب الاحصائية هي المعيار الذي يقيم على وفقه جودة النتاج البحثي / فالبحوث النوعية مازالت نادرة ولم تستعمل الجماعات البؤرية على سبيل المثال لا الحصر غير في نطاق محدود والتي بالرغم من عدم توفر معظمها على الشروط التي يجب ان تتوفر فيها وفائدتها وجدواها غير انها ماتزال نادرة اما استعمال المقابلات المعمقة فما زال احد النضالات التي لم تثمر حتى اللحظة !

ان ضعف الفرص التطويرية والاطلاع على بحوث كتبت بلغات اخرى غير العربية لم يساعد الباحث على تطوير ادواته البحثية ونطلقاته الفكرية والنظرية وجعل من عملية البحث العلمي جامدة صماء تدور في فلك خمينيات القرن المنصرم بشكله السطحي وليس العميق.

طرق البحث وانتاج البحث بطرق ميكانينكية سطح من العمل البحثي وجعل منه بلا جدوى فكرية

وعلى الرغم من ارتفاع عدد البحوث التي تناولت المراة في النتاج الاتصالي غير ان تلك البحوث لم تنتج اتجاه فكري يؤشر قضايا النساء في النتاج الاتصالي .فاذا كان النوع الاجتماعي قد ظهر في بعض عناوين البحث فلا يتعدى الامر العنوان النوع فعلى سبيل المثال تجد الباحثاو الباحثة او المشرف على بحث من هذا النوع لايعرف ان ثمة طرق بحثية لتناول موضوع النوع الاجتماعي ومازال الكم وتحليل المضمون يهيمين على الدرس الاكاديمي حتى لو كان البحث في جوهره مبني على تحليل الخطاب .

اسهم العنف الدائر في العراق منذ عام 2003 في التشبث بالاعتقاد ان الخروج من مستنقع العنف بمكن ان يتحقق عبر نظام ديمقراطي مستقر قبل طرح افكار من قبيل المساواة . لذا فان ما عمل على تقديمه وصفة لبناء نظام ديمقراطي جاء منقوصا لان المساواة من مقومات الديمقراطية .

لكن هذا لايمنعنا من التسليم ان ارتفاع مستويات المساواة الفعلية بين الجنسين ليس هو الضرورة لتحقيق الديمقراطية لكن ارتفاع مستوى الدعم لفكرة المساواة بين الناس هو الضروري لتحقق الديمقراطية والعدالة .

تأسيسا على ذلك ليس من المهم ادخال مفهوم النوع الاجتماعي وتداوله في الجامعة بل من المهم ارتفاع مستويات فهمه وتحوله الى اداة تحليل ونقد تعيد تعريف المجتمع .

.على سبيل المثال كنت ادير ندوة عن التنمية المستدامة وقدمت ورقة تتحدث عن البيئة وتاثر النساء بالتلوث المناخي والاعلام فانبرى احد الحضور بالقول ان حدثت مشكلة في تزود البيت بالماء فان الرجل هو من يذهب لاصلاع انبوب الماء! لو اردت تحليل رد فعل الاستاذ على عبارة تاثر النساء بشحة المياه وانعكاس ذلك على حياتهن لاحتجت الى بحث كامل يفكك خطابه الجسدي بالدرجة الاولى وهو يجلس متاهبا بالصف الاول في القاعة ليرد على عبارة في ورقة دون انتظار وقت فتح المداخلات ولتسطيح الامر الى رجل يصلح مايتعطل من ادوات في المنزل لان الادوار الاجتماعية تصنف مهمته في هذا ! المراة لايمكن ان تصلح انبو انكسر وفاته انه هو ايضا ليس بمقدوره فعل هذا وان مايقوم به هو احضار عامل الى البيت ليقوم بالمهمة وهي مهمة يمكن لوالدتي ان تقوم بها ان تتصل بالمصلح وياتي لاصلاح العطب! فاته اننا نتحدث عن مشكلة بيئة ليس بمقدور رجل او امراة ان تعالجها وان الامر ليس رد تهمة او دفاع !

في حين علق الاخر الذي صدف انه مشرف على بحث عن الجندر والبيئة الاتصالية في قطاعات الاعلام والاتصال الحكومي ان مداخلتي جائت هكذا لاني منحازة الى النساء!

وهو امر لم اكن لاخفيه او اخجل منه:انحيازي للدراسات النسوية !

وان كنت لا اخفي اهتمامي بموضوعات النساء فان من يقوم بدراسة هذه الموضوعات وجلهن من الباحثات يجدن انفسهن في منطقة دفاع عن سبب اهتمامهن او خياراتهن البحثية:في كثير من الاحيان فهو ليس خيار الباحث او المشرف ولكن شحة الافكار دفعت لاختيار الموضوع .